دور علماء مكتبة الإسكندرية فى تطور الدراسات الأدبية

منذ أن أصبحت الأوراق البردية أهم مادة للكتابة فى العالم القديم، ومنذ أن عم انتشارها فى بلدان البحر المتوسط، راجت سوق الكتاب كوسيلة للمعرفة وأصبح بوسع الأفراد . كما هو بوسع الهيئات . أن يقتنوا مكتبات خاصة بهم. ويخبرنا أثينايوس *Athênaeus*:

[Athênaeus, Deipnosophistai, i. 3a, Leipzig (1887), ed.by G.Kaibel]

فى كتابة الشهير مأدبة الفلاسفة . أن بيسستراتوس *Pisistratos* حاكم أثينا، وبوليكراتيس *Polykratês* حاكم ساموس، كانا يقتنيان مجموعات ضخمة من الكتب.

وعندما أوشك القرن الخامس ق. م. على الانتهاء لم يعد من الغريب وجود المكتبات الخاصة، فنرى الكاتب المسرحى الكوميدى أرسطوفانيس *Aristophanês*، فى مسرحيته الضفادع *Batrachoi*، يتهكم على زميله الشاعر التراجيدى يوريبيديس *Euripidês* (بيت رقم ٩٤٣ من المسرحية)، ويزعم أن الأخير كان يستمد عادة الشطر الأكبر من مادة مسرحياته من الكتب:

" يستقطر ما فى الكتب *apo bibliôn apêthôn* "

ويخبرنا مؤلف كتاب حياة الخطباء العشرة، المنسوب خطأ إلى بلوتارخوس *Ploutarchos* (فقرة ٨٤١ وما بعدها)، أن الخطيب الأثينى ليكورجوس *Lycourgos* (٣٩٠ . ٣٢٤ ق.م.) قد تقدم إلى الحكام فى مدينة أثينا باقتراح مؤداه ضرورة حفظ الوثائق الرسمية فى دار للمحفوظات خاصة بها. ولا ريب أن مثل هذه الدار قد أنشئت خلال فترة زمنية تالية لتقديم هذا الاقتراح، لأن الحاجة وقتئذ كانت ماسة للحفاظ على نصوص المسرحيات التراجيدية والمؤلفات الأدبية والتاريخية والفلسفية وغيرها؛ وبدون ذلك كان من العسير . أو ربما من المستحيل . أن تصل إلى أيدى الباحثين والقراء فى العصر اليونانى . الرومانى.

ولقد أدى تقدم العلم وازدهاره، منذ انفصال معظم العلوم عن الفلسفة خلال القرن الرابع ق.م.، إلى وجود مدارس فلسفية وعلمية ذات شهرة ذائعة، مثل مدرسة أفلاطون التى تعرف باسم الأكاديمية *Akadêmia*، ومدرسة أرسطو *Aristotelês* التى كان مقرها الليكيون *Lykeion* وعرفت باسم مدرسة المشائين *Perpatêtikoi*، والمدرسة الرواقية التى أسسها الفيلسوف زينون *Zênôn*، وكان مقرها الرواق المزخرف *Stoa Poikilê* ، والمدرسة الإبيقورية التى أسسها الفيلسوف إبيقور *Epikouros*، وعرفت باسم مدرسة الحديقة *Kêpos*، ومدرسة الشكاك *Skeptikoi* التى أسسها الفيلسوف بيرون الإيلى *Pyrrhon of Elis*، وغيرها. وكانت مبانى هذه المدارس جميعاً تحتوى على مكتبات تضم بين جنباتها أعداداً وفيرة من الكتب والمؤلفات فى شتى صنوف المعرفة. ويخبرنا الجغرافى الشهير استرابون (Strabôn. xiii3, 1, 54) أن الفيلسوف أرسطو كان يملك مجموعة ضخمة من الكتب . على الأقل بمقاييس عصره . وهو أمر ربما يفسر لنا سبب تعدد اهتمامات فلاسفة مدرسة المشائين الأرسطية وتشعبها، خاصة بعد أن ورثوا عن أستاذهم ورائدهم بعد وفاته هذه المكتبة.ولقد غدت مكتبة الفيلسوف أرسطو هى النموذج الذى أسست على غراره مكتبة الإسكندرية الشهيرة، بناء على اقتراح من ديمتريوس الفاليرى *Dêmêtrios of Phaleron*، أحد تلاميذ مدرسته (Diogenês Laestios, iv, 1; v, 51)، والذى أسست على غراره كذلك مكتبات المدن الهيلنستية الأخرى، مثل مكتبة مدينة برجامون *Pergamon*.

ومن الأهمية بمكان، بعد هذه المقدمة عن أهمية الكتب قديماً، أن نتحدث عن الدراسات الأدبية والبحوث العلمية التى تمت فى مدينة الإسكندرية، وعلى وجه الخصوص، داخل أروقة الموسيون *Mousion* السكندرى وخارجها. ولا بد أن ننوه هنا بأن الموسيون كان مركزاً للبحث فى العلوم والفنون والآداب سواء بسواء، كما كان علماؤه ورجالاته يجمعون فى خبراتهم بين هذه المجالات. ونضرب مثلاً على هؤلاء بأعظم علماء الجغرافيا آنذاك، وهو إراتوسثينيس *Eratosthenês*، الذى كان عالماً أيضاً فى الرياضيات وشاعراً وأديباً فى نفس الوقت، لدرجة أن زملاءه فى الموسيون كانوا يطلقون عليه حيناً اسم صاحب التخصصات الخمسة *ho Pentathlos*، أو الثانى *to Bêta*، بمعنى أنه كان الثانى فى أى علم أو تخصص بعد مؤسسه. أما فى الجغرافيا فكان إراتوسثينيس هو الأول بلا منازع، ويكفيه فضلاً فى هذا المقام أنه كان أول من تمكن من قياس محيط الكرة الأرضية بدقة فائقة تدعو للإعجاب، قبل قرون عديدة من ظهور كوبرنيكوس.

ولقد كانت مكتبة الإسكندرية القديمة، التى كان مبناها الأول عبارة عن جزء من الموسيون، مخصصة لخدمة الباحثين من العلماء والفقهاء والبارزين، وهى المكتبة التى عرفت قديماً باسم المكتبة الملكية، والتى تعزى فكرة إنشائها كما ذكرنا إلى ديمتريوس الفاليرى، تلميذ الفيلسوف ثيوفراسطوس *Theophrastos* عالم النبات الشهير الذى خلف أستاذه أرسطو فى رئاسة مدرسة المشائين. ولقد ضاقت هذه المكتبة الملكية بعد إنشائها بسنوات بما حوت من كتب، الأمر الذى حدا بالملك بطلميوس الثالث يورجتيس إلى إنشاء مكتبة أخرى اتخذت من معبد السرابيوم *Serapium* بعد بنائه وتشييده مقراً لها.

ولا ريب أن جهوداً مضنية قد بذلت قديماً فى تصنيف هذه الكتب، التى ذكرت المصادر المتأخرة أن عددها قد وصل إلى ما يزيد عن تسعمائة ألف كتاب، حتى يمكن استفادة الباحثين منها، غير أننا لا نعرف على وجه الدقة كيف تم تصنيفها وفهرستها فى ذلك العصر، وإن كانت الإشارات الواردة فى المصادر القديمة تبين لنا أن كاليماخوس *Kallimachos*، زعيم البرناس السكندرى وأمير شعراء العصر الهيلّنستى، هو الذى اضطلع بإعداد القوائم الببليوجرافية لكتب هذه المكتبة فى حوالى مائة وعشرين لفافة بردية. وإلى جانب هذا الجهد الفائق الذى قام به كاليماخوس، حمل باحثون آخرون من الأدباء والشعراء على كاهلهم مهمة إعداد تصنيفات نوعية لكل طائفة متجانسة من الكتب، مثل مؤلفات التراجيديا أو الكوميديا أو الشعر الغنائى أو الخطابة وغيرها.

ومن المشاكل المتعددة التى واجهت علماء مكتبة الإسكندرية، أن الكتب القديمة كانت على شكل لفافات بردية مخطوطة يتم نسخها باليد، وأن مستوى من يقومون بنسخها كان يتذبذب بين التفوق والامتياز من ناحية وبين الافتقار إلى الدقة والوقوع فى كثير من الأخطاء من ناحية أخرى. ولقد أدى هذا التذبذب إلى أن أصبحت النصوص القديمة طوال مراحل نسخها وتداولها عرضة للتحوير أو الدس أو التحريف، بسبب الأخطاء التى كان يتردى فيها كثير من النساخ، وكان لزاماً على باحثى ذلك العصر الاضطلاع بتصويبها ومراجعتها وتحقيقها، لكى يصبح فى وسع من يقرأها فى نهاية الأمر الحصول على نسخة صحيحة خالية من الأخطاء ما أمكن ذلك. ولقد أدت هذه الجهود والمحاولات لحسن الحظ إلى تقدم مطرد فى مناهج الدراسات الأدبية، وتحقيق النصوص القديمة، وتأليف البحوث العلمية ونشرها.

وليس من قبيل المصادفة أن خمسة من القائمين على الإشراف على مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وهم: زينودوتوس *Zênodotos*، أبولّونيوس الرودى *Apollônios Rhodios*، إراتوسثينيس، أرسطوفانيس البيزنطى

Aristophanês Byzantios، أرسطارخوس *Aristarchos*، كانوا كلهم تقريباً من الشعراء ومن رجالات الأدب فى عصرهم. وإلى هؤلاء العلماء وأمثالهم يعزى الفضل الأكبر فى التقدم الملحوظ الذى طرأ على مناهج الدراسات الأدبية والبحث اللغوى، وأعتقد أن العصور التالية لعصرهم ينبغى أن تشعر تجاهم بالامتنان والتوقير، لأن جل ما وصل إلى العصور الوسطى من مخطوطات ونصوص قديمة محققة وموثقة كان ثمرة لجهودهم وبفضل علمهم. ويكفى فى هذا المجال أن نضرب مثلاً بنصوص هوميروس *Homeros*، شاعر الملاحم الفذ الذى أشادت بعبقرية كل العصور بلا استثناء، وحسبنا أن نذكر أن ما وصل إلينا من أعماله عن طريق البرديات التى اكتشفت فى أرض مصر خلال القرن الثالث قبل الميلاد كان ضئيلاً بكل المقاييس، فضلاً عن عدم دقته وبعده عن الصواب، إذا ما قارناه بالكم الهائل الذى وصلنا من القرون التالية حتى القرن السادس الميلادى. ولا ريب أن السبب المباشر وراء زيادة عدد نصوص هذا الشاعر واتصافها بالدقة واعتمادها على التحقيق والتوثيق، كان بفضل جهود علماء مكتبة الإسكندرية وعملهم الدؤوب، وتكريسهم جل وقتهم للعمل فى صمت وتجرد، نشدانا لخلود الذكر وذيوع الصيت. ولقد كان هدف هؤلاء العلماء . فيما هو مرجح . يتلخص فى أن يوفروا للمهتمين نصوصاً محققة لكل الكتاب القدامى، أو لمعظمهم على أقل تقدير، بحيث يعتمد على دقتها ويعول على صحتها.

وإلى جانب هذا الهدف الجليل أو هذه الغاية الصعبة، وضع علماء مكتبة الإسكندرية نصب أعينهم أن يتم نسخ مؤلفات القرن الخامس ق.م. من الأصول الأتيكية المعتمدة، لا عن طريق النسخ المنقولة، وأن يجرى تدوينها بنظام الكتابة القديم الذى ظل سائداً عند تدوين النقوش الإغريقية حتى عام ٤٠٣ ق.م. تقريباً. ومما ينهض دليلاً على صحة هذا الرأى أن أرسطارخوس، النحوى الشهير، قد شرح لنا أن وجود بعض مواطن الصعوبة فى نصوص الشاعر الغنائى الشهير بنداروس *Pindaros*، كان سببه عدم فهم الأجيال التالية التى عاشت خلال العصر السكندرى لطريقة الكتابة بالأبجدية الإغريقية القديمة، التى كانت مطبقة . كما ذكرنا . قبل عام ٤٠٣ ق.م.، والتى دونت بها نصوص هذا الشاعر فى أصولها القديمة. ويضرب لنا أرسطارخوس مثلاً على هذا بأن ناسخ إحدى قصائد بنداروس النيمية (Nem., I, 24) خلال القرن الخامس ق.م. . قد دون فى المخطوطة كلمة *eslos* (وهى كلمة فى الصورة الدورية للكلمة الأتيكية *esthlos* التى تعنى: خير أو نبيل). ولقد ظن أرستارخوس لأول وهلة أن هذه الصفة فى حالة الفاعل المفرد كما تراءى له من نهايتها (os−)، غير أنه ما لبث بعد تفكير أن اكتشف أن مثل هذه الحالة لا تتناسب مع وزن بيت الشعر، ومن ثم فقد هداه تفكيره إلى تصويبها إلى *eslous*، أى أنه جعلها فى حالة المفعول به الجمع، وهنا استقام الوزن، وذلك على اعتبار أن طريقة تدوين الأبجدية الإغريقية كانت تقضى باستخدام حرف الأوميكرون (o) بدلاً من الصوت المزدوج (ou).

ومن الوسائل التى كانت خير عون للقارئ فى ذلك العصر علامـــات التـرقيم *Sêmeia Stixeôs* والنبرات *Tonoi*، التى كان الهدف من وضعها على الكلمات توضيح النطق السليم ورفع الصوت على مقطع بعينه عند نطق الكلمة، وهى العلامات التى عزى فضل ابتكارها إلى الناقد الفذ أرسطوفانيس البيزنطى. ومن الجدير بالذكر أن الفائدة التى عادت على العصور الحديثة من استخدام هذه الوسائل كانت أكبر بكثير من الفائدة التى جناها القدماء. فنحن نعلم أنه لم يعم استخدام هذه العلامات بشكل ملحوظ إلا قرب بداية القرن العاشر الميلادى. وربما كان السبب فى عدم انتشارها طوال العصور القديمة والوسطى راجعاً إلى أن تحقيق النصوص كان أهم لدى العلماء من استخدام الوسائل المعينة على القراءة، خاصة أن القراء فى ذلك العصر كانوا يتحدثون ويكتبون باللغة اليونانية، لغة آبائهم وأجدادهم، ولم تكن حاجتهم ملحة لمثل هذه الوسائل.

ولم يكن شرح النصوص والتعليق عليها بأدنى أهمية من تنقيحها وتحقيقها، ومن هنا فقد تفتقت قريحة علماء مكتبة الإسكندرية عن ابتكار ما يعرف باسم الحواشى أو التعليقات *scholia*، التى كانت خير معين للأجيال التالية على فهم كثير من دقائق النصوص القديمة، والتى أنارت لنا الشطر الأكبر مما غمض علينا فهمه. ومن الكتب المهمة التى ألفها علماء مدرسة الإسكندرية، والتى أعانت الباحثين على فهم مرامى النصوص القديمة الخفية، الكتاب الذى ألفة زينودوتوس عن حياة هوميروس، ثم مقاله الذى دونه عن الزمن الداخلى لأحداث ملحمة الإلياذة، وكتاب أرسطوفانيس البيزنطى عن القياس النحوى *Peri Analogias*، وكذلك كتابه الذى صوب فيه القوائم الببليوجرافية التى أعدها كاليماخوس، ثم أكملها بإضافة عدد من الملاحق لها. ولقد ورد فى إحدى البرديات الإغريقية التى تم العثور عليها فى مدينة أوكسيرنخوس (البهنسة حالياً .P.Oxy., no. 2192)، أن هناك مقالاً عن شخصيات الكوميديا قام بتأليفه هيبسيكراتيس *Hypsikratês*، ومقالاً آخر عن الأساطير المستخدمة فى التراجيديا من تأليف ثرساجوارس *Thersagoras*. ولم تكن هذه التعليقات تدون - كما هو الحال فى المخطوطات - فى حواشى النصوص القديمة نفسها، بل كانت تدون فى لفافة بردية منفصلة عن لفافة العمل الأدبى نفسه.

ولقد كانت هناك علامات ورموز خاصة متفق عليها بين العلماء، يتم استخدامها بغرض لفت نظر قارئ النص المخطوط إلى امتياز فقرة أو روعتها، أو لتنبيهه إلى أنها فقرة مدسوسة أو منحولة. ويمكننا أن نسوق مثالاً على هذه الرموز أو العلامات مما وجدناه مدوناً على إحدى برديات مجموعة برلين (P. Berol.,9780) التى يحتوى متنها على جزء من تعليقات الباحث اللغوى والناقد ديديموس (القرن الأول ق.م) على أعمال الخطيب الأثينى الشهير ديموسثينيس *Dêmosthenês*. وأولى هذه العلامات تعرف باسم الخط القصير *obelos* (-)، وهى عبارة عن خط أفقى قصير يوضع فى الهامش على يسار بيت الشعر المدون، لكى يوضح بها الباحث المحقق أنه بيت مدسوس، ولقد استخدم زينودوتوس هذه العلامة فى أبحاثه لتوضيح هذا الغرض بصفة منتظمة. وهناك خمس علامات أخرى استخدمها كل من أرسطوفانيس البيزنطى وأرسطارخوس فى تحقيقهما للنصوص القديمة، أولها تعرف باسم العلامة الازدواجية *diplê* (<)، وهى علامة تلفت نظر القارئ إلى موضع ذى أهمية خاصة متعلق بمضمون النص أو بلغته. والثانية تسمى العلامة الازدواجية ذات النقطتين *diplê peristigmenê* (<)، وكان أرسطارخوس يشير بها إلى بيت اختلف مع زميله زينودوتوس فى إيراده أو فى ترتيبه. والثالثة تعرف باسم النجمة *asteriskos* (※)، وهى توضح أن البيت المشار إليه بها قد تكرر عن طريق الخطأ فى موضع آخر. والرابعة تجمع بين النجمة والخط الأفقى القصير *asteriskos kai obelos* (- ※)، وكانت تنبه القارئ إلى وجود أبيات منحولة دست فى النص ونقلت إليه من موضع آخر. أما الخامسة فتسمى بحرف السيجما المقلوب *antisigma* (⊃)، وهى تشير إلى حدوث خلط فى ترتيب الأبيات الشعرية داخل الفقرة المعنية.

وكان من عادة العلماء الإسكندرية - بناء على منهجهم العلمى - إثارة الشك فى النصوص المنقولة، وهو الأمر الذى حدا بهم إلى استبعاد *athetein (or athetesis)* أبيات اعتبروها منحولة بعد فحصها ودراستها. ولكن المعايير التى كانت تدفعهم إلى استبعاد مثل هذه الأبيات المنحولة ليست مقنعة كل الإقناع للباحثين المحدثين، رغم وجاهة شطر لا بأس به منها. وأحد هذه المعايير أو الأسس التى استندوا إليها هو افتقار لغة الأبيات المستبعدة إلى الجزالة، أو بعدها عن التناسب *aprepeia* مع سياق النص الأدبى ككل. واستناداً إلى هذا المعيار - على سبيل المثال - تم استبعاد ثلاثة أبيات (٢٩ - ٣١) من النشيد الأول من ملحمة الإلياذة، وهى الأبيات التى جاءت على لسان أجاممنون، والتى يمكن ترجمتها بالعربية على النحو التالى:

"لا! لن أطلق سراحها أبداً (يقصد الفتاة خريسيس محظيته التى حصل عليها من غنائم الحرب)، إلى أن تدهمها الشيخوخة، وهى فى قصرى بمدينة أرجوس بعيداً عن وطنها، حيث ستنسج لى ثيابى وتقاسمنى فراشى!!!". ولقد قام العالم اللغوى السكندرى الذى استبعد هذه الأبيات . وفقاً لما ورد فى إحدى مخطوطات فينيسيا . بوضع علامة الخط القصير (ـ) أمام الأبيات فى الهامش، ثم دون الحاشية التفسيرية التالية:

"لقد استبعدت هذه الأبيات، لأنها تضعف من قوة المعنى كما أنها تقلل من شدة لهجة التهديد، بالإضافة إلى أنه ليس من المستساغ أن ينطق أجاممنون (وهو قائد الحملة العسكرية الإغريقية) بمثل هذه التعبيرات". كذلك استبعد الناقد زينودوتوس عدداً من الأبيات (٤٢٣ . ٤٢٦) من النشيد الثالث من ملحمة الإلياذة، تحت زعم مؤداه أنه ليس من اللائق أن تقوم أفروديتى، وهى ربة، بتقديم مقعد لكى تجلس عليه هيلينى، وهى من البشر.

ورغم وجود مثل هذا التعارض فى وجهات النظر بين علماء الإسكندرية والباحثين المحدثين، وبغض النظر عن عدم اقتناعنا أحياناً بوجهات النظر التى استند إليها هؤلاء العلماء القدامى، إلا أننا لا يمكن أن ننكر أن هؤلاء العلماء الثقاة قد أمدونا فى واقع الأمر بتعليقات شتى، تشهد على قوة فكرهم ورجاحة عقلهم ونفاذ بصيرتهم؛ بل إننا لنصاب بالدهشة من أننا نجد أنفسنا أحياناً عاجزين عن مجاراتهم أو منافستهم فيما توصلوا إليه. ومن أهم الأحكام النقدية التى توصل إليها أرسطارخوس . إمام المحققين . حكم نقدى لا يزال صائباً حتى عصرنا هذا، ومؤداه أن أفضل دليل على صحة نسبة لفظ أو تعبير إلى أديب بعينه عند وروده فى أحد أعماله، هو الدليل الذى تؤيده براهين ومحكات مستقاة من دراسة باقى أعماله الأخرى، ولقد أطلق أرسطارخوس على هذا الحكم النقدى اسم: "الاستدلال على هوميروس من خلال (أعمال) هوميروس":

Homeron ex Homerou Saphinizein.

ولقد أثبت علماء الإسكندرية أنهم لا يملكون فقط المقدرة على استبعاد ما هو زائف أو مدسوس من النصوص الأدبية القديمة، بل إنهم كانوا يتمتعون علاوة على ذلك بالحس الأدبى الأصيل والذوق الفنى الرفيع، وهو الأمر الذى مكنهم من الحكم على جمال فقرة أو امتياز موضع أو الإشادة بتعبير رائع. ونضرب مثالاً على هذا بالتعليق الذى دونه أحدهم على الأبيات ٤٦٧ . ٤٧٤ من النشيد السادس من الإلياذة (Ms. Burney – Brit. Mus.)، وهى أبيات يصور فيها الشاعر البطل الطروادى هيكتور *Hectôr* وهو يودع زوجته أندروماخى *Andromachê*، وكيف تملك الفزع طفله أستياناكس *Astyanax* حينما شاهد الريش وهو يهتز فوق خوذة والده:

"هذه الأبيات زاخرة بالمقدرة الوصفية، لدرجة أن القارئ لا يسمع من خلالها جرس الكلمات فحسب، بل يشاهد عن طريقها المشهد ماثلاً أمامه برمته. فلقد استمد الشاعر هذا المشهد من الحياة الواقعية، ونقله فى شعره بتفوق وامتياز. ورغم أن الشاعر يصور الواقع بتفوق إلا أن (نقله للواقع) لم يؤثر البتة فى سمو لغة الملحمة أو يقلل من جمالها".

ولم يقتصر نشاط علماء الإسكندرية بحال من الأحوال على دراسة النصوص الهومرية ونشرها وتحقيقها، وإن كانت هذه النصوص تمثل الشطر الأكبر من النصوص الأدبية التى وصلت إلينا من العصور القديمة، فلقد وجهوا اهتمامهم كذلك وبالقدر نفسه إلى كافة نصوص الأدب اليونانى القديم. ولقد وضعوا نصب أعينهم . فيما يتعلق بالتراجيديا . أن يضاهوا نصوصها السائدة فى عصرهم بالأصول الأتيكية المعتمدة، وأن يؤلفوا أعمالاً ضافية عن ألفاظها ومصطلحاتها. كذلك حمل أرسطوفانيس البيزنطى على عاتقه أن يؤلف دراسات نقدية عديدة عن الفقرات

الإنشادية والأجزاء الغنائية التى كانت تلقيها جوقات المسرحيات التراجيدية، وكان أول عالم سكندرى يكتب ملخصات *hypothesês* لكل المسرحيات التراجيدية والكوميدية التى تم تأليفها خلال القرن الخامس ق.م.، قبل أفول نجم الحضارة الهيِّلنية القديمة وتدهور التأليف الدرامى.

ومن أهم إنجازات علماء الإسكندرية أنهم استطاعوا التوصل إلى معرفة الأبيات المنحولة التى دسها الممثلون على النصوص الدرامية، وبوجه خاص فى مسرحيات يوريبيديس *Euripidês*، وهى أبيات كثيرة العدد ويصعب على الباحثين معرفة العصر الذى تم دسها خلاله على وجه اليقين. وعلى سبيل المثال توضح لنا تعليقات باحثى الإسكندرية أن الأبيات ٨٥ . ٨٨، من مسرحية ميديا للشاعر يوريبيديس، تحتوى على أخطاء كان السبب فى وجودها الممثلون الذين غيروا النص، لأنهم لم يتبينوا علامة الوقف التى وضعت عند نهاية البيت رقم (٨٥)، ولقد أوضحت هذه التعليقات كذلك أن البيت رقم (٨٧) مدسوس على نص المسرحية. وفى مسرحية أورستيس للشاعر ذاته تعلن الجوقة (أبيات ١٣٦٦ . ١٣٦٨) أن رجلاً من فريجيا *Phrygios* قادم من خلال بوابة القصر، فى حين أن هذا الفريجى نفسه يعلن فى الأبيات (١٣٦٩ . ١٣٧١) أنه ولج القصر عن طريق القفز من السقف. ولقد أوضحت لنا التعليقات القيمة التى دونها علماء الإسكندرية أن النص المكتوب الذى ألفه الشاعر يوريبيديس، كان يتطلب من المخرج أن يظهر الفريجى وهو يقفز من سقف القصر، ولكن تبين للقائم على الإخراج المسرحى خطورة مثل هذا التصرف على حياة الممثل، ففضل أن يكون دخوله إلى القصر عن طريق الباب، ولذلك تم تعديل الأبيات (١٣٦٦ . ١٣٦٨) كى تتلاءم مع طريقة الإخراج المسرحى.

ولدينا دراسات فنية ألفها العلماء الثقاة عن ألفاظ الكوميديا القديمة، وتناولوا فيها بالشرح والتفسير ما غمض منها وما استعصى على الفهم، وأفردوا فيها مساحة للتعليقات الموجزة *scholia minora* على مسرحيات شعرائها ابتداء من ماجنيس *Magnês* حتى أرسطوفانيس. ولقد تم نشر هذه التعليقات القيمة، التى يرجع تاريخها إلى حوالى عام ٢٠٠ ق.م.، ضمن مجموعة بردية حديثة نسبياً هى مجموعة السوربون عام ١٩٦٦ (P.Sorbonne, I (1966, no. 7.). أما فيما يتعلق بأناشيد النصر التى ألفها الشاعر الغنائى المبدع بنداروس *Pindaros*، فيزودنا العالم الفذ أرسطوفانيس البيزنطى بتعليقات فائقة الروعة، ربما كان أكثرها اتصافاً بالحصافة وبعد النظر التعليق الذى استبعد فيه هذا العالم جملة وردت فى أحد أناشيد النصر الأوليمبية (Olymp. ii, 48.)، لأنه اكتشف أن البحر الشعرى فيها مختل الوزن. وهناك برديات عديدة تشهد على انتشار مثل هذه التعليقات الضافية ورواجها خلال العصر الرومانى، فلقد عثرنا على بردية من مجموعة أمهرست (P.Amh., ii. (1901), no. 18.)، تزودنا بتعليقات رائعة على استخدام الألفاظ وتسلسل معانيها عند شعراء الكوميديا، ويتم التركيز فيها على قطبين لامعين من هؤلاء الشعراء، هما أرسطوفانيس ومناندروس، ويتم الاستشهاد على صحة وجهات النظر الواردة بها بأعمال للشاعر السكندرى ذائع الصيت كالّيماخوس.

ولا ينبغى أن يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر الجهود التى بذلت فى سبيل تأسيس علم النحو على منهج علمى صارم ودقيق، فلقد تسلم أرسطارخوس، عالم اللغة الأشهر، الراية من أيدى الأساتذة الرواقيين الذين تسلموها بدورهم من أرسطو، فأسهم بجهد وفير فى إرساء قواعد هذا العلم وتعريفاته. ثم قام بتوجيه تلميذه الوفى ديونيسيوس الثراقى *Dionysios Thrax* (١٧٠ . ٩٠ ق.م.) إلى إكمال جهوده وأبحاثه، فتمكن الأخير من تأليف أول أجرومية لنحو اللغة اليونانية بعنوان فن النحو *Technê Grammatikê*، صدرها بتعريف للمعيار الذى يتمكن الناقد عن طريقه

من الحكم على جودة الشعر وتميزه، ثم انتقل بعد هذا لتحديد أجزاء الكلام *merê tou logou* الثمانية المعروفة على عهده وتعريفها، وأورد أمثلة توضيحية عديدة وشارحة على كل من إعراب الأسماء وتصريف الأفعال وخصائص سائر أجزاء الكلام. ولقد ظل كتاب ديونيسيوس الثراقى هذا . رغم صغر حجمه وتركيزه البالغ . هو العمدة والأساس فى علم النحو حتى العصور الحديثة، بعد أن كان موضع الاهتمام ومناط الإعجاب طوال العصور القديمة، حيث تمت ترجمته إلى كل من اللغتين السريانية والأرمنية.

ويعتبر ديديموس *Didymos* أشد علماء مدرسة الإسكندرية جلداً وأكثرهم غزارة فى الإنتاج، إذ نسبت إليه المصادر المتأخرة أنه قد اضطلع بتأليف ما يربو على أربعة آلاف كتاب، كما تردد اسمه كثيراً فى التعليقات والشروح التى دونت خلال حقبة العصور الوسطى، وتم إغداق الثناء عليه بوصفه ناقداً متميزاً وناشراً ومحققاً لعدد كبير من النصوص الأدبية القديمة. ومن مؤلفات ديديموس التى ذاع صيتها على مر العصور كتاب يشى بسعة العلم والتفقه بعنوان ألفاظ التراجيديا *Tragikai Lexeis*، وهو كتاب استفاد منه جامعو المعاجم ودوائر المعارف فى العصور التالية . وعلى رأسهم هيسيخيوس *Hesychios* . ويحتوى على كل ما هو نادر أو صعب أو غريب من الألفاظ . ومن أعمال ديديموس المهمة أيضاً تعليقاته الضافية على كُتَّاب النثر الذين ألفوا أعمالاً فى مجال التاريخ أو الخطابة، مثل المؤرخ ثوكيديديس *Thoukydidês* والخطيب ديموسثينيس *Dêmosthonês* (أنظر.P. Berol., no. 9780). ولقد نظر النقاد المحدثون إلى ديديموس بوصفه باحثاً يتميز بالجلد والمثابرة وغزارة الانتاج، أكثر من كونه عالماً صاحب عبقرية فذة أو ناقداً عالى الكعب طويل الباع. ولعل هذا السر الذى دفع سودا *Souda*، صاحب المعجم الشهير بهذا الاسم، إلى أن يطلق على ديديموس لقب صاحب الأحشاء الحديدية *Chalkenteros*، وهى صفة تدل على الجلد والصبر والإنتاج الكمى الوفير.

ولقد تمخضت هذه البحوث والدراسات العلمية، التى تتميز بالإتقان حيناً وبالغزارة حيناً آخر، عن تدوين عدد هائل من البرديات الأدبية خلال القرون الأربعة التالية للميلاد وما بعدها، وتم حفظها للأجيال الحديثة لتنهض شاهداً على الجهد الضخم الذى بذله العلماء والباحثون منذ نشأة مكتبة الإسكندرية القديمة إبان القرن الثالث ق.م. ويكفى أن نذكر أن مجموع ما نشر من النصوص الأدبية المدونة على الأوراق البردية . وفقاً للإحصاء الذى قام به الأستاذ روجر باك *R.Pack* عام ١٩٦٥ . يربو على ٣٥٠٠ نص، وربما أصبح هذا العدد الآن مضاعفاً لو قام أحد بإحصاء دقيق آخر فى هذه الآونة. ولقد وصل إلينا من إنتاج هوميروس وحده ما يزيد على سبعمائة نص، وهذا الرقم يوضح بجلاء أن هوميروس قد احتل مكان الصدارة بين كافة الشعراء والأدباء، وأنه ظل على مر العصور شامخاً متربعاً على القمة، رغم اختلاف المقاييس والأذواق والمعارف. وتكاد النصوص الأدبية التى وصلتنا تغطى معظم مؤلفات الكتاب الإغريق القدامى، كما تضم عدداً لا بأس به من كتاب العصر الهيلّنستى وشعراء العصر السكندرى والأدباء اللاتين. كما أن هذه النصوص تحتوى على مؤلفات فى مجال الفلسفة والخطابة والتاريخ والجغرافيا وكتابة السيرة والتراجيديا والكوميديا، وأخرى فى مجال المسرحيات الساتيرية والميميات والشعر الغنائى والإبجرامة والملاحم والشعر الرعوى، وفى مجال الرواية والأشعار الحكمية وأدب الخرافات. وهناك نصوص منها تتعلق بعلوم النحو والفلك والطب والرياضيات والكيمياء والنبات والحيوان والموسيقى، وأخرى عن الأدب اللاتينى والقانون الرومانى ونصوص من الإنجيل والتوراة وأعمال الرسل، ونصوص فى الزراعة والعرافة والكهانة والرؤى والأحلام، وفن كتابة الرسائل والتشريع والنقد الأدبى، ونصوص فى مجال تعليم المصارعة وفن الطهى

والصيد والأساطير والاختزال؛ هذا بخلاف النصوص المدرسية المتعلقة بكافة مراحل الدراسة ونصوص التعليم المهنى، وهذه تبلغ وحدها أكثر من خمسمائة نص.

ويرجع الفضل الأكبر فى وجود هذه الآلاف المؤلفة من النصوص الأدبية والعلمية إلى المؤسسات العلمية الراعية والحاضنة، مثل الموسيون السكندرى ومكتبة الإسكندرية الشهيرة، ولكن هناك دوراً مهماً قامت به كذلك دور النسخ التى كانت قائمة فى المدن الكبرى وعواصم الأقاليم، والتى تزايدت أهميتها خلال العصر الرومانى. وليس من قبل الشطط أن نعتقد بوجود مكتبات خاصة فى المدن اليونانية بأرض مصر، وأن هذه المكتبات كانت تكمل دور مكتبة الإسكندرية الشهيرة بما تحتويه جنباتها من كتب قيمة، الأمر الذى ساعد على رواج الثقافة الهيلّنية وانتشارها، وساهم فى حفظ قسط كبير من تراث الإغريق والرومان للعصور التالية.

إن فضل مصر يتمثل بلا جدال فى الاسهام والمشاركة فى جعل هذه الثقافة العريقة تستمر وتنتشر بصورة قل أن يوجد لها مثيل فى التاريخ، وهو فضل يتمثل كذلك فى حفظ كنوز هذه الثقافة للعصور الحديثة وحمايتها من الضياع، فضلاً عن إسهام عدد من مفكرى مصر . مثل المؤرخ مانيثون وغيره . فى مد تراث الإنسانية الخالد بكثير من الأفكار الخلاقة فى عدد من الميادين بوجه عام، وفى الديانة المسيحية بوجه خاص. ذلك أن طابع الحضارة المصرية كان دائماً . وسيظل أبداً . قائماً على الحفظ والبناء لا على الهدم والتدمير. ولم تكن الحضارة المصرية على مر العصور تفرق فى هذا المجال بين ثقافتها الخاصة وبين ثقافة غيرها من الشعوب، بل كانت سياستها متعادلة إزاء الثقافات كافة سواء بسواء. وهذا فى الحقيقة سر من أسرار عظمة الحضارة المصرية التى أثبتت على مر العصور أنها، وإن أعاقتها النكبات عن أن تضرب بسهم وافر فى الخلق والإبداع، فلا أقل من أن تضطلع بحفظ تراث الإنسانية من الضياع.

محمد حمدى إبراهيم